كلمة الدكتور إبراهيم الجعفري في حفل تقديم جائزة شيخ المؤرّخين
الاستاذ الدكتور حسين أمين في سنتها الرابعة بتأريخ
2012/4/6

بسم الله الرحمن الرحيم
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..
قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز:
((فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض))

وأنا أنظر إلى الأستاذ الدكتور حسين أمين في هذه السنة، وهو يتعذر عليه الوقوف؛ ارتجلتُ له بيتاً من الشعر:
يا عمود التاريخ تبقى إماماً
أنت رغم الجلوس تظلّ قياماً

كثيرون لا يقرؤون التاريخ، والقلة من الناس من يقرؤونه، والأقل منهم من يأخذ من عِبَره، أو يتوقفون عند محطات النجاح والفشل... تبقى مدرسة التاريخ أكثر المدارس عطاءً، ويبقى مدرّس التاريخ مربّياً للمتلقين على الرغم من مرور الأجيال، وتبقى عُقدة عدم التلقّي الأزمة الحقيقية التي تعاني منها الشعوب؛ لأنهم لم يأخذوا من التاريخ... حاجتنا للتاريخ ليس لأننا ننشدّ إلى عُقدة ماضوية إنما نريد أن نبني واقعنا على ضوء ما أفرزه التاريخ؛ وبذلك يتحوّل التاريخ من ماضٍ إلى مستقبل إذا أحسنا فن الأخذ.. سنجد أن رحم التاريخ معطاء بشرط أن نأخذ من هذا التاريخ الزاخر.

ليس لهواً أن يقضي الإنسان وقتاً ينفتح من خلاله على كتاب من كتب التاريخ، أو يستمع إلى عالم في التاريخ، أو منظّر من منظّريه ممن كتبوا، ونظّروا، وهم كُثُر ومنهم: ويل ديورانت وآرلوند توينبي الذي أبدع في كتابة التاريخ عندما نظر إليه، وحلّل سياقاته بنظرية الصدمة أو التجاوز.

التاريخ يصدمنا بواقع معيّن، وحين يصدم الشعب أو الأمة أو الفرد في مشكلة معيّنة سيتدخل التاريخ، وفيه حافزان اثنان الحافز السلبيّ يعاني من عُقدة الشلل، والحافز الإيجابيّ يفكر كيف يتجاوز العقبة، وكيف يشقّ طريق النجاح، ولو من تجربة الفشل؛ لذلك نجد الكثير ممن حققوا نجاحات باهرة كانوا قد انطلقوا من نقطة فشل ما، إلا أنهم شقّوا طريق النجاح، فالفاشل في التجربة لا يعني أنه فاشل في الحياة، بل أستطيع أن أقول جازماً: ما من قائد ناجح إلا وانطلق من محطة فشل إن لم يكن مجموعة محطات فشل، ولو إن الذين فشلوا وقفوا جيداً، وتزوّدوا من محطات الفشل لاستطاعوا أن يعبروا إلى المستقبل بكل كفاءة.

الاتجاهات التي تقاسمت التاريخ كثيرة جداً، وقد لفت انتباهي في كتاب مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية الاسبق، رسالة كتبتها إلى الرئيس المنتخَب، قالت في صفحة 162 من الكتاب: إن المنظّر الصينيّ مستر نو يونغ يقول: في الصين يقرأون التاريخ للانشداد إلى التاريخ، وإحياء الأمجاد، وانشدادهم للتاريخ انشداد لا يسمح إلا بالتمسّك بالتاريخ مهما كان.

فيما اتجهت المدرسة الأميركية في التاريخ إلى أن تسعى إلى عدم تكرار أخطائها في التاريخ، وتحاول أن تبني مستقبلها بطريقة تتجاوز فيها أخطاء الماضي، أما نحن في الإسلام فننظر إلى التاريخ من زاويتين زاوية نرفض التاريخ، نرفض أخطاءه، ونرفض التمسّك به لا لشيء إلا للتمسّك بالماضي:
((إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)).

الزاوية الثانية هي أن نعقد العزم على أن نعبر إلى التاريخ بعقل مفتوح؛ حتى نأخذ منه ما يعمّر حاضرنا، ونتجاوز به، ونجتاز، ونعبر إلى المستقبل:
((لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى)).

نذهب إلى التاريخ؛ حتى نضيف عمر الأمم إلى عمر أمتنا، ونضيف حياة الناجحين إلى حياتنا.. ماذا يعني أن تطّلع على تجربة أمة ... يعني أن تأخذ عمرها، وتضيفه إلى عمرك، فالعمر ليس عبارة عن ثلاث وجبات في اليوم، ومائة وجبة في الشهر، وألف وجبة في السنة. ليس هذا هو العمر إنما العمر أن تأخذ من العِبَر، وتستفيد، وتطوّر عقلك، وتجربتك، وما بين العقل والعمل جدلية حيث عقل يُولّد تجربة، وتجربة تطوّر عقلاً. صدق الإمام علي حين قال:
(العقل عقلان عقل الطبع وعقل التجربة).

يذهب آرنولد في نظريته، إلى أن الأمم إذا تعرّضت إلى حروب تسجّل نهايتها، فما من أمة اعتمدت مبدأ الحروب، وأفشت القتل وسفك الدم في الأمم الأخرى إلا وكان مآلها إلى الزوال، هذه سُنّة في التاريخ قالها القرآن الكريم، ويردّدها المنظّرون من أمثال آرنولد توينبي وكثير من المنظّرين في التاريخ.

نحن بأمسّ الحاجة لأن نبتعد عن شيء اسمه قتل الإنسان، الإنسان هو الإنسان، العدو الحقيقيّ للإنسانية اليوم هو الإرهاب الذي يقتل الطفولة تلك الزهرة العصيّة على الذبول، والابتسامة التي تشرق، وتبعث الضوء في نفوس الناس أينما حلّت في البيت أو أي مكان.. الإرهاب لم يترك حُرمة إلا انتهكها، وهذا لا ينسجم ومنطق الإسلام:
((ولقد كرّمنا بني آدم)).

كرّم الله (تبارك وتعالى)، الإنسان بما هو إنسان، بغضّ النظر عن دينه، ولونه، ومنطقته، ولغته، وأي شيء آخر، حتى لم يقُل (فضّلنا)؛ لئلا يشتبه مشتبه أن صيغة

أفضل تعني أن الإنسان أفضل من بقية الحيوانات، لا.. حَصَرَ التكريم بالإنسان وحده:
((ولقد كرّمنا بني آدم)).

لذا لا توجد حروب جيدة، وحروب سيئة. الحروب كلها سيئة.

التقيتُ ممثل وزارة الخارجية الأميركية في عام 2002 في شهر تشرين الثاني، وهي أول مرة في حياتي ألتقي شخصية أميركية من وزارة الخارجية الأميركية، وكانوا يُصرون على عقد مؤتمر سُمِّي فيما بعد بـ (مؤتمر لندن)، وكنت أمثّل حزب الدعوة الإسلامية، ورفضت بضرس قاطع، وقد سألني: لماذا لا تريدون التغيير؟ قلت له: نحن قدّمنا قطاراً من التضحيات من الدُعاة في سبيل تحقيق التغيير، لكننا لا نعتقد أن الحرب هي أداة التغيير، نحن مع التغيير، لكننا لسنا مع الحرب، وأنا أجد المؤتمر واجهة لحرب تبدأ، فتدمّر، ثم تنتهي باحتلال، فيتواصل التدمير، قال: إذن ما الحل؟ قلت له: أقول لك بكل صراحة الحل هو أن تسحبوا سفاراتكم من بغداد، وتغلقوا سفارات النظام في عواصمكم، وتحيلوا صدام وزمرته إلى مجرمي حرب، وتعيدوا الأموال العراقية إلى الشعب العراقيّ عبر منظمات دولية، وتسندوا الشعب العراقي، وترفعوا الحصار الاقتصاديّ عن الشعب العراقي، وافرضوا حصاراً سياسياً على الحكومة العراقية سيسقط ببضعة أيام من دون مبالغة... هذا ما قلتُه للسيد ديفيد في نهاية عام 2002 قُبيل عقد مؤتمر لندن.

الحرب ليست حلاً. ثقافة الحرب تدمّر، وحرب الإرهاب اليوم أسوأ أنواع الحروب، الحروب النظامية، وحرب الجبال والغابات لا تصل إلى الدرجة من السوء التي تصل إليها حرب الإرهاب.

نحن اليوم في حرب حقيقية، وحرب عالمية هذه التي يسمّونها الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية لم تكن عالمية إنما حروب أوروبية، ثم دخلت أميركا في الأولى وفي الثانية.. الحرب كانت حرباً أوروبية اشتعلت في قارّة أوروبا، لكنهم يريدون أن يقولوا: إذا نشبت حرب في أوروبا فإنها حرب عالمية، ليس الأمر كذلك، فحين اضطرت أميركا لأن تشترك في الحرب العالمية الثانية لم تخسر من المواطنين إلا أقل من 10، وفي 1941/12/7 اضطرت لأن تدخل الحرب، لكنها خسرت في 11 سبتمبر في 2001 ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف مواطن من المدنيين في القصف الذي تعرّضت له بالطائرات، وسجّل الإرهاب الحديث المحطة الأولى في أميركا، ثم انتقل إلى اسبانيا، وإيطاليا، وبريطانيا، وإلى الشرق الأوسط في شرم الشيخ بمصر، وافغانستان، والعراق، وسورية... الإرهاب لم يبدأ في العراق، ولم ينتهِ في العراق. لا يوجد شعب يحب الإرهاب.. لا يوجد إنسان يقبل الإرهاب.

حرب الإرهاب أقذر أنواع الحروب؛ إذ تتحرك فلوله لتضرب كل ما يقع أمامها المدارس، والمعابد، والكنائس، والمستشفيات، والمُشاة الذين يذهبون إلى الزيارة، ويتخذون من كل مكان خندقاً؛ ليسعّروا الحرب، ولا تميّز بين امرأة ورجل، بين شيخ عجوز وطفل؛ لذا يجب أن نقرأ التاريخ قراءة متأنية متدبّرة متأمّلة؛ سنجد أن المشترك الإنسانيّ فيما يتطلع إليه من طموحات وأهداف، وفيما يهدّده من مخاطر وتحدّيات يمكن أن يكون مشتركاً.

وعي المشترك بيننا وبين الآخرين يصلح أن نـُقيم عليه قاعدة للتعامل.. لا نستطيع أن نلغي المشتركات بيننا وبين الآخرين على الإطلاق.. لا أستطيع أن أتصوّر دولة بلا خلافات، ولا أستطيع أن أتصوّر عالماً بلا خلافات، ولا أستطيع أن أتصوّر عائلة بلا اختلافات، ولا أتصوّر علاقة زوجيّة بلا خلافات، بل لا أتصوّر إنساناً عندما يُعيد النظر في أفكاره، ويعقد مقارنة بينما هو عليه الآن وما كان عليه إلا وأجد فيه اختلافات مع نفسه، إذا كان الأمر كذلك فكيف نتصوّر عالماً بلا خلافات.

إذن لا نفكر كثيراً كيف نوجد عالماً بلا اختلافات، لكن دعونا نفكر كيف ندير عالماً فيه اختلافات، ونسقط خيار الحرب إلى الأبد، فلتكن الخيارات متعدّدة ولنحوّل السجالات الإعلامية إلى خطابات تقوم على أساس ما أسمّيه (تحريك المُتفق وتجميد المختلف)، المختلف جزء من واقعنا، لكن كم عرفنا عن الآخرين من المشتركات... لماذا نتجاهل المتفق الواسع، وتستبدّ بنا عُقدة المختلف... لماذا نعرف ما نختلف به مع الآخرين قبل أن نعرف ما نتفق به معهم... هذه هي المشكلة... قبل أن نلتقي نعرف ما نختلف، لكننا لا نعرف ما نتفق.

حين ننطلق من المختلف فمن الطبيعي أن يختنق المتفق مهما كان واسعاً، أما لو انطلقنا مما نتفق سنجد أن المختلف عليه يتضاءل.. الديانات كلها أكدت على قيم مشتركة، أكدت بثالوثها - العقيدة بالله (تبارك وتعالى)، والاعتقاد بالآخرة وبالحبل المُوصِل وهو النبوة - كلنا نتفق عليها، والخلافات كائنة في التفاصيل، ولو أحسنـّا، وتحلـّينا بوعي المتفق، وحرّكنا إرادة الالتزام بالمتفق، وتجميد المختلف - إذا لم نستطع حله - لأعدنا الابتسامة المسروقة، ولطردنا سمات الحزن والكآبة، ولعالجنا الكثير من المشاكل.

ما هو الفرق بين الطفل الألمانيّ، والبريطانيّ، والأميركيّ، والمصريّظ، والعراقيّ، واليمنيّ، والإيرانيّ، والتركيّ ... الإنسان هو الإنسان، والإنسانية تتطلع إلى من ينطلق إلى احترام الإنسان، واحترام حقوقه.. منذ زمن بعيد والإسلام يؤكد على حقوق الإنسان، وما جاءت المدارس الحديثة ليس جديداً عندنا، في زمن روزفلت قبل الحرب العالمية الثانية صار تعديل في الدستور، ونزلت قضية حقوق الإنسان، واليوم لوائح كثيرة تتكلم بحقوق الإنسان ونحن معها، ولو أننا تحرّكنا على هذا المشترك سنجد العالم بألوان كلها الحب والثقة والإنتاج والتنمية لا يوجد عالم كراهية.. لا يوجد

إنسان يقول أنا أعتقد بالله، وأكره الناس؛ لأن الله (تبارك وتعالى)، أحبّ الناس، هذه الصورة تعطينا انطباعاً بأنك باسم الدين تحاور الآخرين:
((قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)).

لا يمكن أن تدعو إلى فكرة من موقع الحقد، وحين تدعو شخصاً إلى فكرك فهذا يعني أنك تحبه، وإذا كنت تحبه فعليك أن تختار أحب الأساليب:
((ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً)).

يعمل عملاً صالحاً فيه خير للناس، لا أن يقول أنا مسلم، ويوزّع القتل والفساد.. كل الديانات تلتقي بل كل الأنظمة الاجتماعية حتى غير الدينية على احترام الإنسان، ولو تحرّينا الدقة سنجد أن في الأنظمة الاجتماعية مشتركات كثيرة.. وحين نتحدّث عن العراق سنجد أنفسنا - بالضرورة - نتسلق إلى قمم التاريخ.. قضت مشيئة الله (تبارك وتعالى)، أن يكون العراق مهد الحرف والأسطوانة والعجلة.. كل عناصر ومكوّنات الحضارة بدأت في العراق منذ مطلع الألف الرابع قبل ميلاد السيد المسيح (عليه وعلى نبينا وآله افضل الصلاة والسلام)، وبعد ذلك جاءت حضارة الأهرام؛ لذا يُثبت آرنولد أن الحضارة الإنسانية بدأت من وادي الرافدين قبل الأهرام.

لا يكفي أن ننشدّ إلى تاريخنا، ونكون غافلين عن واقعنا الحاضر.. لابد أن نستمدّ عناصر القوة من ذلك التاريخ، وندوّر هذه الثروة إلى واقعنا المعاصر.. أنا أقدّر مهمة المؤرّخين لا لأنهم يكونون صدى لصوت الأحداث التي مرّت إنما أجدهم يغوصون إلى عمق التاريخ، ويستخرجون من الدروس والعِبَر ما يجعل واقعنا مُفعَماً بكل عناصر السعادة والنجاح، ونقدّر قيمة المؤرّخ؛ لأنه لا يتحدث عن ماضٍ رجوعاً إلى الوراء إنما يتحدّث وهو يصنع حاضراً، وينظر إلى المستقبل؛ لأنه فهم التاريخ فهماً اجتماعياً، فما إن تبدأ الأسباب تلوح في الأفق إلا ويدخل عليها، ويمنع النتائج المترتبة عليها إذا كانت تؤدّي إلى الحروب.

هذا هو الذي أعتبره في التاريخ؛ لذا احترامنا للتاريخ، واحترامنا للمؤرّخين ليست مِنـَّة عليهم إنما لأن هؤلاء ومن خلال بواكير أفكارهم واستنتاجاتهم الرائعة يعينوننا على أن نعتبر، وحين نعقد مثل هذا الاجتماع فهو ليس إلا تعبيراً عن وفاء ومحبة للذين يضطلعون بالمهمة التاريخية، ولأن أستاذنا الشهير الدكتور حسين أمين هو ممن تقلّد مِنصّة التاريخ، وتفوّق بهذا الموقع، فنحن إنما نحيّيه؛ لأننا نريد أن نحيّي من خلاله جيل المؤرّخين الحاضرين والأجيال اللاحقة، ونريد منها أن تتحوّل إلى مفاعلات تاريخية، وتحوّل هذا المُدوَّل التاريخيّ من الماضي إلى الحاضر، وإلى المستقبل؛ حتى لا نقرأ تاريخنا بخجل، وحتى لا نتعنصر كما تعنصر هتلر، حين قرأ التاريخ بطريقة وجد أن الأمة الألمانية أشرف من الأمم الأخرى.

لا نريد أن نقرأ التاريخ بهذه الطريقة، إنما نريد أن نقرأ التاريخ بطريقة تطلعنا على المشترك الإنسانيّ، وتختزل المسافات الجغرافية، وتجعل البعيد الجغرافي قريباً ثقافياً وربما يكون القريب الجغرافيّ - إذا كان عدواً - بعيداً تاريخياً، فليست المسألة مسألة بُعد وقرب جغرافي، إنما مسألة بُعد وقرب فكريّ، خصوصاً أننا نعيش اليوم عصر العولمات.

أنا أعتقد أن الثقافة قارّة واحدة، وهي القارّة الممتدّة إلى كل بني الإنسان في مختلف مناطق العالم.. حان الوقت لأن يصل المُنتَج الفكري من خلال ما ينبعث عليه؛ حتى يصل إلى المتلقّي الفكريّ في أقصى العالم.. لقد أصبحت مسؤولية لا أمراً كمالياً.. المِحَن التي يمرّ بها الناس تحتاج إلى تنظير، وكل شيء من حولنا يعكس ثقافة بتحدّياته بإنجازاته، وإذا أردنا أن نعالج الظواهر الاجتماعية في كل بلد من بلدان العالم كالعنصرية، والفساد، ينبغي أن نحارب البنية التحتية التي يقوم عليها البناء الفوقيّ العنصريّ، والشوفينيّ، وكل هذه النعرات السيئة؛ حتى نعيد للإنسانية إنسانيتها الحقيقية.
عراق ما بعد القمّة اختلف عن عراق ما قبلها، وعادت الأمة العربية إلى العراق في مؤتمر قمّة بغداد، العراق هو هذا لم يتبدّل فيه شيء، عراق بتاريخه بحاضره، وهو لكل العرب.. لكل الإنسانية.. عراق متنوّع دينياً ومذهبياً وقومياً وسياسياً.. هذا العراق للجميع، وهو يختزن من عناصر القوة والحضارة من الناحية الروحية، ومن الناحية المادية ما يؤهله، وهو مؤهَّل.

نحن نتطلع لأن تبدأ الثقافة العراقية الإنسانية تتسع، ثم تعكس إشعاعاتها على الدول العربية وكل بلدان العالم.. كنا نتطلع إلى المؤتمر المُزمَع عقده قريباً ما يسمى ( 5 + 1)، أن يُعقَد في بغداد؛ لأننا نتصوّر أن عقده في بغداد سيحمل رسالة مزدوجة رسالة من دول العالم إلى الشعب العراقي، ورسالة من الشعب العراقي إلى دول العالم: أن العراق اليوم ليس فقط كسر القمقم الزجاجيّ، واستطاع أن يُطل على أفق الأمة العربية، بل يُصرّ على أن يُطلّ على أمم الإنسانية جمعاء في مختلف مناطق العالم، ويقرن اسمه بالحلول؛ حتى يعود العراق إلى ما يريده الشعب العراقيّ، وليس إلى بؤرة صدام بحروب محلية ضد وحروب في المنطقة ومآسٍ محلية كحلبجة والأنفال، وقمع الانتفاضات، كما حصل في انتفاضة الأنبار، والانتفاضة أو الثورة الشعبانية في الوسط والجنوب، كان بؤرة توتر واحتلال كما حصل للكويت، والحرب على السعودية وإيران ... العراق اليوم يُصرّ على أن يتحوّل إلى بؤرة طمأنينة، ونقطة ارتكاز تشعّ حبّاً وتقديراً واحتراماً.

مرة أخرى أكرّر جزيل شكري وتقديري إلى أستاذنا الفاضل الدكتور حسين أمين داعياً له بالصحة والعافية، وأن يمتّعنا الله (تبارك وتعالى)، ببقائه ونتاجه الفكريّ، وسنكون معه على موعد في العام المقبل بإذن الله (سبحانه وتعالى)؛ لإحياء هذه الذكرى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.